

وداعاً حسام الدين الآلوسي

توفي ببغداد في ٧ تشرين الأول/أكتوبر من هذا العام ٢٠١٣ أستاذ الفلسفة الدكتور حسام الدين الآلوسي. وللراحل مكانة متميزة في الفكر العراقي والعربي المعاصر. مارس الفلسفة تدريساً أزيد من خمسة عقود، في العراق وفي جامعات عربية مختلفة، فتلمذ على يديه العديد من الطلبة. أكاديمياً، يُعدُّ حسام الآلوسي هو الفلسفة في العراق. فهو ينتمي لجيل فلسفي ضمَّ أسماء جادة قليلة: يُذكر معه، من بين من يُذكر، الراحلون ياسين خليل، وكامل مصطفى الشبيبي، وعرفان عبد الحميد. كانت مسيرته العلمية حافلة بمنتج ثرٍ: نشير هنا إلى كتبه الرئيسية: "حوار بين الفلاسفة والمتكلمين"، و"دراسات في الفلسفة الإسلامية"، و"بواكير الفلسفة قبل طاليس أو من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان" و"الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم"، وكتابه شبه الموسوعي "فلسفة الكندي وآراء القدامى والمحدثين فيه"، و"التطور والنسبية في الأخلاق"، و"الفلسفة والإنسان"، فضلاً عن مقالات وبحوث عديدة أخرى نشرت تحت عنايات مختلفة.

في منتصف الثمانينيات، كنّا طلبة نراقب خطوات مفكر ماركسي، عقلاً يَمُور بالجدل جدلياً، وبالتساؤل في أكاديمية يهيمن عليها عقل الأيديولوجية البعثية، وفي قسم للفلسفة كان بعض أساتذته يرتدي لباس السلطة فكرياً ومظهراً (الزيتوني)، يتجسسون على الطلبة ويكتبون التقارير الأمنية، وبعض آخر تَقَمَّص دورَ شرطي للفكر. في بيئة كهذه،



ولقد رأى بعضهم، ممن كتب تواريخ جزئية عن النشاط الفلسفي في العراق، هذا "التوسع المنهجي"، فعده هدايةً لمرحلة جديدة تنازل فيها عن شغفه الأممي. وفي الحقيقة، فإن تفسيرات كهذه كانت ترى في الآلوسي اللامتمي الوحيد، فلا بد من جرّه إلى ثكناتهم. بيد أن ذلك كله كان مجرد تمحلّ وسوء تقدير. نعم، ثمة توسع في حلقاته المنهجية، ولكن مركز الدائرة هو نفسه: الرؤية المادية للعالم. ونعم مرة أخرى أن ثمة روحاً أخرى تتخفى خلف هذه الصرامة الفكرية، روحاً لا تبهتبدو لمن يراقبها عن كتب غير مستقرة، وكما لو أنها لم تجد الحل بعد، أو لم تطمئن إليه. سؤال الفلسفة، والميتافيزيقا، ظلّ يسكنه دائماً وأبداً، فهو المنحدر من عائلة دينية، وتربية تركت أثرها عليه دون أدنى شك، ما كان قادراً في دواخله على محوها تماماً. ظلّت هواجس الإنسان المتناهي، المتّجه إلى الموت، تحفر في نفسه وعقله عميقاً. ولكنك لن تجد ذلك في كتابته النظرية مطلقاً! كان شخصين، أو جوابين، يتصارعان، أحدهما للحياة اليومية الاجتماعية، والآخر للمفكر الذي يكتب لقارئ مجهول.

ومع ذلك، ولأسباب كثيرة، لم يواكب الآلوسي الفكر الماركسي بنسخه العديدة الحديثة، ولا التطورات التي شهدتها هذا الفكر في ما يسمى بالماركسية الغربية. فلقد ظلّت الماركسية الكلاسيكية اللينينية، وحتى الستالينية، هي صاحبة الحضور الأشدّ كثافةً في أغلب ما كتب. ولهذا

كيف يمكن لعقل أن ينمو ويتطور ويواكب الفكر الجديد، وفي هذا عجب! ومع ذلك، مثل حسام الآلوسي، في وسط ذاك الخراب الفكري، العقل النير، والجاد، والتقدمي، فكان نقطة الضوء الوحيدة تقريباً. لم يعدم قسم الفلسفة الوحيد آنذاك (في جامعة بغداد) أساتذة أكفاء ونيرين، ولكن يبقى لحسام الآلوسي همّة وجدية البحث والكتابة والنشر. جهد حسام الآلوسي في كل ما كتب، على تبني المنهج المادي الجدلي التاريخي وتطبيقه. وقد كرّس مقدمة كتابه "دراسات في الفلسفة الإسلامية" لتوضيح متبنيات هذا المنهج، وآليات اشتغاله وتطبيقه، واختلافه عن المناهج الأخرى. باختصار، يمكن القول كانت مسألة المنهج إحدى أهم المسائل التي عني بها الآلوسي. فالفكر الفلسفي كما رأى، ويرى، لا بد من أن ينضبط على وفق منهج معين. إن الحقيقة، وهو من المؤمنين الأشداء بأن ثمة حقيقة موضوعية، لا تلتمس إلاً بمنهج علمي مناسب. وثمة عوامل عديدة أسهمت لاحقاً في توسيع أفق هذا المنهج، أهمها إقامة الاعتبار للفكر الفلسفي المختلف، أو في الأقل، الانتفاع ببصائر فلاسفة آخرين لا يعبرون ضرورة عن رؤيته نفسها، ولا يلتزمون بخطوات أو آليات منهجه نفسها. ومما يلاحظ أن من بين الفلاسفة الذين كانت بصائرهم نافعة لديه هم فلاسفة براغماتيون وميتافيزيقيون. ولكن يجب القول إنه ظلّ ملتزماً بمنهجه المادي الجدلي التاريخي، وإن وسّع في حلقاته ودوائر.

أسباب قد يكون بعضها غير شخصي. وهنا أفضل النظر إلى الألوسي جزءاً من نمو الفكرة الماركسية في الثقافة العراقية المعاصرة. إذ لاشك في أنه واصل هذا الفكرة، وكان تمثيلها الفلسفي الأبرز، إن لم يكن الأوحد. وتعرقل نمو هذه الفكرة، لأسباب سياسية معروفة، ألقي بظله على تفكيره الشخصي نفسه. كما ظلّت نسخته الماركسية، بسبب ذلك، تفتقر إلى مكوناتها الأساسية الآخر: الممارسة. فظلّت الكلمات العاطفية هي كلّ ما بحوزته.

في كتابه "التطور والنسبية في الأخلاق" (١٩٨٩) يتابع حرفياً الفكرة الشيوعية، وفي الإيمان بحتمية المجتمع الشيوعي. غير أنه لظرفه الزماني ذاك، ما كان أمامه سوى أن ينهي كتابه بـ "خواطر وأفكار ذات طبيعة عاطفية"، ويكتب متأسياً على عدم قدرته على فعل شيء، ناظراً للبؤس من حوله. يكتب:

"إنني أتكلم بلغة هادئة، لأنني لست جائعاً ولا متعباً... ولذلك يخطر ببالي أحياناً بسذاجة وبراعة طفل، أن أطلب من الأغنياء والرأسماليين أن يتركوا جشعهم وأن يؤمنوا بالاشتراكية. وهؤلاء من طرفهم سيصمّون آذانهم، أو يقدمون أقل القليل: الصدقة وبعض الأعمال الخيرية على أحسن الاحتمالات. إننا، أنا وهم، نتكلم بلغة هذا مردودها! ولكن أولئك الذين لا يملكون شيئاً سوى جهدهم يبيعونه تحت ظروف

الاستغلال والامتهان والفصل الكيفي، والفاقة، إذا كانوا يعون المسألة ولا يؤمنون بالقدرية، سيتكلمون بلغة أخرى. إنهم في الواقع لن يتكلموا فقط، إنهم سيقولون قليلاً ولكنهم سيعملون كثيراً، ولن يرضوا بأقل من الحلّ الكامل: الثورة... إنهم أصحاب المشكلة، وهم يعرفون أن المواعظ لا تجدي، إنها ربما تقدم الصدقة، وأنصاف الحلول، ولكنها لن تقدم لهم مردود عملهم المسروق أبداً، ولن ترفع عنهم أغلالهم. إن الفارق بين موقفي وموقفهم هو الفارق بين الثورة والإصلاح، بين الواقع والخيال، بين الحلّ والتوقيع، بين إنسانية بحق وإنسانية برجوازية طوبائية، عذراً أيها الرفاق فلم أختار أن أكون برجوازياً" (١٥٧).

وبدوري أخاطبه الآن من وراء حُجب: لم تكن يوماً أيها الأستاذ التقدمي برجوازياً، ولم تكن الفلسفة عندك مجرد ترف، ولا مجرد وظيفة، ولا وسيلة للتكسب أو التقرب من السلطة. ولقد حانت لحظة الموت التي تكتسحنا ألياً حين لا يعود الجسد يقوى على الاستمرار، ويكفّ عن الحياة ألياً عقلٌ فكّر جدلياً، وكتب من أجل حياة أفضل. وداعاً أيها الأستاذ، لقد تركت في عقل كلّ واحد من طلبتك وقرائك قبساً من نور ومحاولة للتفكير.

علي حاكم صالح

